ست خصال

13-2-2003

ومن العوائق التي قد توهن نفس طالب الشهادة ما يعرض له من وحشةٍ وفزعٍ في الطريق، فلربما كان وحده أو مع رفقة يسيرة، ربما ضاقت عليه الأرضُ وأحاطت به قوى الطاغوت، ربما انقطعت عنه أسباب الأمن، واختلج في النفس خوف الطبيعة والجبلَّة، فكيف يعمل وبمَ يأنس وإلى من يركن؟ هل يعود من حيث أتى وتنتهي رحلة الشهادة بالخسران والتولي يوم الزحف، هل يهادن ويداهن طلباً لأمن نفسه طارحاً همَّ الدعوة وراء ظهره؟ وكيف يفعل ذلك وقد بشَّره الحبيب صلى الله عليه وسلم أنه في مقابل هذا الفزع العابر والهلع اليسير سيبلغ مبلغاً من الأمن في عرصات يوم القيامة حين تضج الخلائق وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، وفيما الناس في ذلك إذ هو يعيش بشارة النبي صلى الله

بقلم د . وسيم فتح الله

كثيرون هم الذين يتلون قول الحق عز وجل:" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون"(التوبة – 111)، ولكن قليلون هم الذين يقدرون على الوفاء بهذا البيع المبارك، قليلون جداً، ذلك أن طريق سداد الثمن طريق شائكٌ وعر على من تفرق قلبه في أودية الدنيا ، طريقٌ مخيفٌ موحشٌ على من لم يألف قلبه الأُنس بالله، طريقٌ مربكٌ محيّر لمن ارتاب قلبه وزاغ بصره، ولهذا ورغم كثرة من يبتدرون السير في أول الطريق فإن القليلون فقط هم الذين يمضون فيه إلى النهاية، فما هي عاقبة ذلك المسير، وأين تنتهي غاية هؤلاء الصفوة ؟ فلنتأمل: عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه" (رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب، وصححه الألباني رحمه الله)

نريد أن نتدبر معاً هذه الخصال لندرك ماهية الزاد الذي يتزود به سالكو هذا الطريق، والبلسم الذي يداووون به جراحاتهم، والأمل الذين يُمنون به نفوسهم، واليقين الذي يُزكون به إيمانهم، فلربما، أقول ربما وجد أحدنا في نفسه العزيمة على المضي في مثل ما مضوا فيه، ولربما استطاع أحدنا أن يبلغ هو الآخر غاية هذا الطريق غير آبهٍ بغبار النقع، غير منتبهٍ لبكاء الأهل، غير ملتفتٍ إلى نعيق أهل التخذيل، ربما...

ولا بد لفهم هذه الخصال من فهم عوائق سلوك طريق الشهادة، تلك العوائق التي يسوِّغ بها الواحد منا قعوده ويبرر بها تخلفه والتي منها ما هو لحظِّ النفس وأمنها، ومنها ما هو لمكان الإنشغال بالواجب الآخر، ومنها ما هو لمكان الند لله في الحب الذي لم يتجرد في قلب المكلف تجرداً تاماً بعد، ولهذا يأتي هذا الحديث بخصاله الست ليعالج هذا الأسقام ويبدد تلك الأوهام، ويدفع بالقلوب القائمة على حرف إلى اتخاذ ذلك القرار، قرار دفع الثمن...

فمن العوائق التي تعترض طريق طالب الشهادة توهُّم فوات النفس قبل الاستزادة من الطاعات والقربات وأداء الواجبات، فيُسوِّف العبد حتى يحج وحتى يتمكن قيام الليل من قلبه، وحتى ينتهي من طلب العلم، وحتى ينتهي من خدمة أبويه، وحتى يحصل الشهادة العلمية وحتى يرتقي بعباداته ونوافله إلى مرتبة تليق بالشهيد،وحتى يتوب إلى الله من ذنوبه وينخلع من ثوب معاصيه، وهذه أمور لا تنتهي ومصيدة قلَّ أن ينجو منها من لا يتنبه إليها، ولهذا جاء العلاج النبوي في أول خصلة " يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة" لينبِّه طالب الشهادة بحق أنه مهما فاته من خير النوافل والعبادات الأخرى، فإن الله يعوضه ذلك ويوصله إلى الغاية من تلك العبادات والواجبات الأخرى فلا يحزن على ما قد يفوته من تلك الطاعات فقد أبدله الله خيراً منها وهو في طريق الشهادة :"ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين"(التوبة 120)، وأبدله خيراً منها عند بلوغ رتبة الشهادة بأن يغفر له ذنوبه ويريه مقعده من الجنة، وروحه تترقب يوم الجزاء وهي تطير في سماء الجنة في حواصل طير خضر كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم، فإن كنت صادقاً في طلب الجنة فهاك طريقاً سالكاً ، وإن كانت عباداتك الأخرى إمعاناً في التزام الإسلام فهاك ذروة سنام الإسلام ...

ومن العوائق التي تعترض طريق طالب الشهادة ما قد يتعرض له من أذى الناس لبغضهم له وكرههم للطريق الذي سلكه، حتى إنه ليصبح متهماً مجرماً في أعين هؤلاء المجرمين حقاً، ولربما تمكنوا من إلحاق الأذى والضرر وبعض العذاب بطالب الشهادة، فيسقط البعض ضحية هذه الفتنة:"ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله "(العنكبوت – 10)، في حين تصمد القلة، وتحتاج هذه القلة في صمودها إلى شيء من السلوى والتسلية ليعينها على الصبر على هذا البلاء، وهنا يأتي البلسم النبوي "ويجار من عذاب القبر" ليروِّح عن نفس طالب الشهادة ويذكره بأن هؤلاء وإن آذوه في الدنيا فإن أذاهم ليس بشيء أمام عذاب وفتنة القبر، أما هم فواقعٌ بهم لا محالة وأما هو فمجارٌ منه بفضل الله ، فتحصل لنفس طالب الشهادة طمأنينةٌ عجيبة يهزأ بها بهذا الأذى التافه الذي يوقعه به أعداء الله، وتستحيل آهاتُ الألم أنفاس توحيد تعيد لطالب الشهادة ذكرى بلال : أحدٌ أحد، أحدٌ أحد ... وكيف يلتفت طالب الشهادة لشيء من هذا الأذى بعدذاك، كيف؟

ومن العوائق التي قد توهن نفس طالب الشهادة ما يعرض له من وحشةٍ وفزعٍ في الطريق، فلربما كان وحده أو مع رفقة يسيرة، ربما ضاقت عليه الأرضُ وأحاطت به قوى الطاغوت، ربما انقطعت عنه أسباب الأمن، واختلج في النفس خوف الطبيعة والجبلَّة، فكيف يعمل وبمَ يأنس وإلى من يركن؟ هل يعود من حيث أتى وتنتهي رحلة الشهادة بالخسران والتولي يوم الزحف، هل يهادن ويداهن طلباً لأمن نفسه طارحاً همَّ الدعوة وراء ظهره؟ وكيف يفعل ذلك وقد بشَّره الحبيب صلى الله عليه وسلم أنه في مقابل هذا الفزع العابر والهلع اليسير سيبلغ مبلغاً من الأمن في عرصات يوم القيامة حين تضج الخلائق وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع

كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، وفيما الناس في ذلك إذ هو يعيش بشارة النبي صلى الله عليه وسلم " ويأمن من الفزع الأكبر "، فأي فزعٍ يثنيه عن طريق الشهادة بعد هذه البشارة ، وأي خوفٍ يتسرب إلى قلبه وقد أمن الفزع والخوف الحقيقي يوم القيامة؟

ومن العوائق في طريق طالب الشهادة ما قد يعتريه من ذلٍ وانكسارٍ لمفارقة الأهل والوطن والعشيرة حيث الركن والاعتزاز والمنعة، بل قد يقع أسيراً في يد عدوه فتنكسر نفسه بذلك، وقد يعيش بعدئذٍ شريداً طريداً لا سيما في عصور انحسار بيضة الدين، فلربما سولت له نفسه العود من قبل خوض غمار هذا الأمر، ولربما برَّر ذلك بعدم تعريض المؤمن للمذلة والمهانة، فإذا بالدواء الشافي لهذه العلة يجتثها من القلب قبل أن يتشربها، فذلُّ الدنيا عابرٌ محتمل بل مأجور عليه إن احتسب،وكرامة الدنيا ليست بشيء في حقيقة الأمر عندما تقارن بهاتيك الخصلة العظيمة على رؤوس الأشهاد بين يدي الحق " ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها" فهبني ذاك الوقار ومرحباً معه بذل الدنيا الفانية، ولعمري ما هو بذلٍ على الحقيقة إن كان في الله ولله، فدأب المؤمن أبداً أن المبتلي هو الله فما يضرني أي موقع أراده الله تعالى لي في الدنيا طالما هو موقعٌ يرضيه عني، أما تاج الوقار ذاك فلا كانت الدنيا بأسرها في مقابل التتويج به..

وقد يتجاوز البعض كثيراً من تلك العوائق ثم يقع في مصيدة الحب الفاني؛ حب الزوجة والأهلون، كيف أغادر سرير الراحة ووطاء الدعة واللذة، كيف أغادر حضن الزوجة الدافئ وكيف أودع بسمتها الفاتنة، كيف أدعها ومن يطعمها ويسقيها ويقوم على شؤونها؟ وينسى المسكين أن مطعمها وساقيها هو الله ، وينسى أن حباً يحجبه عن الجدير بالحب الأوحد هو عدوٌ له فليحذره كما حذّر الله تعالى منه :" يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم"(التغابن – 14)، نعم للزوجة حقٌ ولكن فوقه حق الله، وللزوجة حبٌ ولكنه تابع لحب الله، وفوقه وفوق كل حبٍ حبُ الله، ولمكان صعوبة الفراق ولتمكُّن الزوجة من قلب العبد جاءت السلوى وجاء الجزاء من جنس العمل، فلما تركت زوجة الدنيا لله أبدلك الله زوجات من حور الجنة، تأمل" ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين"، بل لئن كانت الزوجة صالحة معينة طالب الشهادة على سلوك الطريق فإن كرم الله يقضي باجتماع الشمل في الجنة إن شاء الله:" والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء"(الطور – 21)، فكيف تتخلف عن المسير لأجل متاعٍ زائل يسير، كيف؟

وقريب مما سبق عائق الأهلون والأقارب ومقاساة الغربة والبعد والشوق، وهو أمر يشق على الأقارب كما يشق على طالب الشهادة، فكان من روعة هذه الخصلة أن عوضت الطرفين جزاء صبرهما واحتسابهما، نعم عوضت الشهيد عن غربته عن أهله وعوضت الأقارب عن صبرهم على فراقه، قال صلى الله عليه وسلم : " ويشفع في سبعين من أقاربه"، فأي قريبٍ لك لا يتمنى خروجك واستشهادك وهو يرجو هذا الخير، وأي عائقٍ لك في أقاربك وهم يدفعونك للشهادة دفعاً، أي عائق؟.

للعودة للأعلى